التَّوَاضُعُ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ

الْخُطْبَةُ الْأُولَى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَفَعَ مَكَانَةَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَذَمَّ خِصَالَ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الْقَائِلِ: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[١].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: حَدِيثُنَا الْيَوْمَ؛ عَنْ خُلُقِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَشِيمَةِ ذَوِي الْفَضْلِ وَالْحُكَمَاءِ، إِنَّهُ خُلُقُ التَّوَاضُعِ، وَمَعْنَاهُ تَهْذِيبُ النَّفْسِ عَنِ الْكِبْرِ، وَلِينُ الْجَانِبِ، وَاحْتِرَامُ النَّاسِ، وَاللُّطْفُ فِي مُعَامَلَتِهِمْ، فَتَحْصُلُ الْمَوَدَّةُ وَالْأُلْفَةُ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، فَقَالَ: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢]. أَيْ: ارْفُقْ بِهِمْ، وَتَوَاضَعْ لَهُمْ[٣]، وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[٤].

وَالتَّوَاضُعُ مِنْ أَفْضَلِ طَاعَاتِ الرَّحْمَنِ، وَأَجَلِّ مَعَالِي الْإِيمَانِ، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "**إِنَّكُمْ لَتُغْفِلُونَ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ: التَّوَاضُعَ**"[٥].

وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "**لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ ذُرَى الْإِيمَانِ حَتَّى يَكُونَ مُتَوَاضِعًا**"[٦]، وَلِمَ الْعَجَبُ، أَوَلَيْسَتْ أَوَّلَ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾[٧]، أَيْ: بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، وَلِينٍ وَتَوَاضُعٍ[٨].

فَتَأَمَّلُوا -رَحِمَكُمُ اللَّهُ- كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ وَصْفَهُمْ بِالتَّوَاضُعِ قَبْلَ سَائِرِ خِصَالِهِمْ، وَكَيْفَ كَرَّمَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمْ، وَإِلَى نَفْسِهِ أَضَافَهُمْ، فَسَمَّاهُمْ **عِبَادَ الرَّحْمَنِ**، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ التَّوَاضُعَ سُلَّمُ الْمَكَارِمِ، وَمِفْتَاحُ الْمَعَالِي، كَيْفَ لَا، وَنَبِيُّنَا ﷺ يَقُولُ :«**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ**»(٩)، وَقَدْ قِيلَ: **إِنَّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ يَتَوَاضَعُ**(١٠).

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ التَّوَاضُعَ فَضِيلَةٌ بَيْنَ نَقِيصَتَيْنِ، فَهُوَ عِزَّةٌ وَوَقَارٌ، لَا تَعَالٍ وَاسْتِكْبَارٌ، وَلَا ذِلَّةٌ وَانْكِسَارٌ(١١)، فَقَدْ رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا مُتَمَاوِتًا مُتَكَلِّفًا التَّوَاضُعَ، فَنَهَرَهُ وَقَالَ: "**لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا**"(١٢).

فَالْمُتَوَاضِعُ عَزِيزٌ مُكَرَّمٌ، مَحْبُوبٌ عِنْدَ رَبِّهِ، قَرِيبٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَتَوَاضَعُوا **عِبَادَ اللَّهِ**، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ(١٣):

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحَ لِنَاظِرٍ*عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ وَهْوَ رَفِيعُ**
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَرْفَعُ نَفْسَهُ * إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهْوَ وَضِيعُ**

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾(١٤).

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّهَا الْمُتَوَاضِعُونَ: إِنَّ التَّوَاضُعَ قِيمَةٌ مِحْوَرِيَّةٌ فِي حَيَاتِنَا؛ تَسْتَقِيمُ بِهَا مُعَامَلَاتُنَا، إِذْ يَحْمِلُ الإِنْسَانَ عَلَى خِدْمَةِ الآخَرِينَ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَتَوَاضُعِهِ فِي خِدْمَةِ غَيْرِهِ؟، فَقَدْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. فَذَهَبَ ﷺ مَعَهَا، وَوَقَفَ مُنْصِتًا إِلَيْهَا، حَتَّى لَبَّى لَهَا حَاجَتَهَا[١٥]، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ خُلُقٍ يُعَزِّزُ التَّآلُفَ وَالتَّكَافُلَ فِي الْمُجْتَمَعِ، ويُحَصِّنُهُ مِنَ الْآفَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، فَمَنْ غَابَ تَوَاضُعُهُ بَرَزَتْ إِسَاءَتُهُ إِذَا تَكَلَّمَ، وَمَنَعَهُ الْكِبْرُ مِنْ أَنْ يَتَعَلَّمَ، ذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي دَخَلَتْهُ ظُلْمَةُ الْكِبْرِ؛ لَا تَغْشَاهُ أَنْوَارُ الْعِلْمِ، وَقَدْ قِيلَ: «**لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ: مُسْتَحٍ، وَلَا مُسْتَكْبِرٌ**»[١٦]. وَإِنَّكَ لَتَرَى الْمُتَكَبِّرَ يَتَعَالَى عَلَى غَيْرِهِ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَيَرَى فِي نَفْسِهِ مَا لَيْسَ أَهْلًا لَهُ، مُتَفَاخِرًا بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ، «**كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[١٧]، كَمَا وَصَفَهُ نَبِيُّنَا ﷺ.

وَأَنْتُمْ **يَا أَهْلَ الإِمَارَاتِ**، يَا مَنْ عُرِفْتُمْ بِالتَّوَاضُعِ؛ اعْتَزُّوا بِقِيَمِكُمْ، وَكُونُوا دَوْمًا شَامَةً بَيْنَ النَّاسِ بِأَخْلَاقِكُمْ، وَرَسِّخُوا خُلُقَ التَّوَاضُعِ فِي أَبْنَائِكُمْ. أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[١٨]. هَذَا وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ الْأَكْرَمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ جَوَامِعَ الْخَيْرِ، وَمَعَاقِدَ الْبِرِّ، وَخَزَائِنَ فَضْلِكَ، وَسَعَةَ عَفْوِكَ.

اللَّهُمَّ أَدِمْ عَلَى دَوْلَةِ الْإِمَارَاتِ عِزَّهَا وَنَصْرَهَا، وَاسْتِقْرَارَهَا وَازْدِهَارَهَا، وَخَيْرَهَا وَرَخَاءَهَا. اللَّهُمَّ احْفَظِ الشّيخ مُحَمَّد بْن زَايد رَئِيسَ الدَّوْلَةِ بِحِفْظِكَ، وَكُنْ لَهُ عَوْنًا وَسَنَدًا، وَبَارِكْ فِي عُمْرِهِ وَعَمَلِهِ، اللَّهُمَّ وَفِّقْهُ وَنُوَّابَهُ وَإِخْوَانَهُ حُكَّامَ الْإِمَارَاتِ، وَوَلِيَّ عَهْدِهِ الْأَمِينَ؛ لِمَا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ.

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الشّيخ زَايد، وَالشّيخ رَاشِد، وَشُيُوخَ الْإِمَارَاتِ الَّذِينَ انْتَقَلُوا إِلَى رَحْمَتِكَ، وَأَدْخِلْهُمْ بِفَضْلِكَ فَسِيحَ جَنَّاتِكَ. اللَّهُمَّ اشْمَلْ شُهَدَاءَ الْوَطَنِ بِرَحْمَتِكَ وَغُفْرَانِكَ. اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ: الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتَ.

عِبَادَ اللَّهِ: اذْكُرُوا اللَّهَ الْعَظِيمَ الْجَلِيلَ يَذْكُرْكُمْ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ يَزِدْكُمْ. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ.

---

(١) القصص: ٨٣. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "**نَزَلَتْ فِي أَهْلِ التَّوَاضُعِ**" تفسير البغوي: (٦/٢٢٦).
(٢) الحجر: ٨٨.
(٣) تفسير القرطبي: (١٠/٥٧).
(٤) الأدب المفرد: ٤٢٨.
(٥) النسائي في السنن الكبرى:١١٨٥٢.
(٦) شرح السنة للبغوي (١٤/٢٦٩).
(٧) الفرقان: ٦٣.
(٨) تفسير الرازي: (٢٤/٤٨٠).
(٩) مسلم: ٢٥٨٨.
(١٠) جواهر الأدب: ٢/٤٨٠.
(١١) إحياء علوم الدين: ٣/٣٦٨.
(١٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: (٤/ ٣٧٠).
(١٣) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي: (٥/ ٤٧٩).
(١٤) النساء: ٥٩.
(١٥) مسلم: ٢٣٢٦.
(١٦) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (٤١٠).
(١٧) متفق عليه.
(١٨) لقمان: ١٨.